التعليم المسؤول للتاريخ كوسيلة للمصالحة التاريخية؟
تجربة الرابطة الأوروبية لمعلمي التاريخ:
هل تصلح كدراسة حالة؟

يوكي فان دير لييو–رورد(*)

ملخص: يكتب العديد من الباحثين الجامعيين المختصين بنظرية التاريخ وتعليم التاريخ عن المصالحة من خلال تعلّم التاريخ وتعليمه. ولكن تكاد لا توجد معلومات أمبيريقية عن تطبيقات عملية لمقاربات من هذا النوع ولا عن مسار وضعها قيد التنفيذ. أود في هذه المساهمة أن ألقي نظرة عن قرب على أساليب عمل يوروكليو EUROCLIO (الرابطة الأوروبية لمعلمي التاريخ) في البلدان التي توجد داخلها توترات سياسية وعرقية ودينية مثل بلغاريا وإستونيا ولاتفيا ومولدوفا ورومانيا وروسيا وأوكرانيا وتركيا وفي البلدان والمناطق التي تعرضت حديثا لصراعات عنيفة مثل البوسنة وكرواتيا وقبرص وجورجيا وجمهورية مقدونيا وصربيا. ومن ثم أود أن أطرح السؤال حول عمل يوروكليو EUROCLIO وأستطلع ما إذا كان يصح أن يكون مثلاً عن المصالحة من خلال تعليم التاريخ وما إذا كانت مقاربتها تنشئ تعليماً وتعلماً للتاريخ يكون داعماً لكيانات سياسية مستدامة.

مقدّمة

تقع مهمة تعليم الشباب ضمن مسؤوليات المجتمع. وتعليم التاريخ كان دائما يُستعمل لتقوية حس الانتماء عند الأجيال الشابة. ففي أواخر القرن العشرين بيّنت البلدان التي توجد داخلها توترات سياسية وعرقية ودينية مثل بلغاريا وإستونيا ولاتفيا ومولدوفا ورومانيا وروسيا وأوكرانيا وتركيا، وأيضا البلدان والمناطق التي تعرضت حديثا

(*) المديرة التنفيذية للرابطة الأوروبية لمعلمي التاريخ EUROCLIO. البريد الالكتروني: joke@euroclio.nl .

لصراعات عنيفة مثل البوسنة وكرواتيا وقبرص وجورجيا وكوسوفو وجمهورية مقدونيا أن التفاسير التاريخية التي تعطى للحوادث في الماضي القريب والبعيد ما زالت تلعب أدواراً مهمة في النقاشات العامة والسياسية، وتغذّي بسهولة التوتر والنزاع.

وقد أدركت مجموعة من المختصين المحترفين في حقل تعليم التاريخ، مباشرة بعد سقوط الجدار الحديدي، أن الوقت حان لإعادة نظر نقدية مشتركة في المقاربة التقليدية لتعليم التاريخ في المدارس ولتقوية المنحى الابتكاري والحس بالمسؤولية عند معلمي التاريخ. فأسسوا سنة ١٩٩٣ يوروكليو EUROCLIO، الرابطة الأوروبية لمعلمي التاريخ، ومهمتها التشجيع والمساعدة على تنمية منهج تعليمي لمادة التاريخ ابتكاري ومسؤول، يبتغي تقوية السلام والاستقرار والديموقراطية. تدعو الرابطة إلى تعميم مقاربة لنهج تعليم التاريخ تقلل من حدة القومية والإيديولوجيات الأخرى، وتفضح الأساطير التاريخية والقوالب الفكرية السلبية وتضع التصورات التقليدية عن العدو ضمن أطرها المحدودة، وتشجع الاستخدام السليم للتربية التاريخية في سبيل بناء المجتمعات الديموقراطية وتعميقها، وبالتالي تحاول إقامة الرُبط عبر البلدان والأعراق والديانات. لقد نجحت يوروكليو EUROCLIO، مع الوقت، وتأسيساً على العمل التطبيقي الذي قامت به عبر العديد من المشاريع، في تحديد منهجية مبتكرة لتعليم التاريخ، وهي تقوم بصقلها بشكل مستمر. وهذه المنهجية تصلح للتطبيق أيضا عند مواجهة مسائل أكثر صعوبة وحساسية ومثيرة للخلاف. تمثل الرابطة في سنة ٢٠١١، ٣٧ منظمة من ٤٦ بلداً، معظمها أوروبية، وتؤلف شبكة دولية تضم ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف مؤرخ ومعلم تاريخ وتربية مدنية وتراث يخدمون كل سنة ما لا يقل عن خمسة ملايين طالب وتلميذ (Novadoba, n.d.).

تعتقد يوروكليو EUROCLIO أن تعليم التاريخ في المدرسة يتطلب اختصاصيين محترفين مسؤولين ذوي أفق واسع، وذلك لكي يصل التعليم إلى مبتغاه. فاختارت، وهي منظمة مستقلة ضمن المجتمع المدني، أن تعمل بشكل رئيسي مع مجموعة الاختصاصيين المحترفين (من معلمين ومدربي المعلمين والمستشارين ومطوّري المناهج التربوية في ميادين التاريخ والتربية المدنية والتراث). يقوم كل عمل الرابطة على ثلاث ركائز: بناء القدرات الاختصاصية المحترفة بشكل كثيف بحيث ينتج عنها تطوير مواد تعليمية مبتكرة صالحة للاستخدام في الصف ووضعها قيد التنفيذ؛ العمل ضمن شبكات تواصل داخل كل بلد وعبر الحدود، والعمل على إنشاء أو تقوية رابطات مستدامة من المختصين المحترفين على نطاق وطني ومناطقي ومحلي في كل البلدان الأوروبية وأيضا

خارج أوروبا. تعمل هذه المنظمات لتضاعف على صعيد كل بلد عمل يوروكليو EUROCLIO. لا توجد، للأسف، رابطات كهذه في لبنان.

تجمع مشاريع يوروكليو EUROCLIO المربّين في مادتي التاريخ والتربية المدنية معا عبر الحدود الوطنية والثقافية والدينية ليستكشفوا الماضي المؤلم أحيانا في محيط آمن ومن خلال عملية يشرف عليها اختصاصيون محترفون وتخضع لمراقبة دقيقة. وقد أمكن، عن طريق ابتداع منهجية مصممة بدقة وبيئة عمل مستقرة، جمع أخصائيين محترفين يمثلون عددا من المجتمعات المختلفة للوصول سوية إلى نتائج للعمل التعاوني المشترك. وقد نُشرت المواد التعليمية النموذجية لصفوف التاريخ والتربية المدنية في عدة لغات منها الألبانية والبلغارية والبوسنية والكرواتية والاستونية والجورجية والمقدونية واللاتفية والرومانية والروسية والصربية، وهي من النتائج المهمة لهذا النوع من العمل التعاوني المشترك. عموماً، تلاقي المواد المنتجة قبولا جيدا من قبل المعلمين والطلاب. والتقييمات الخارجية والتغطية الصحفية في معظمها إيجابية، مع ان المعارضين، خاصة في روسيا، دقوا أحيانا ناقوس الخطر حول ما اعتبروه نقصا فى المنحى الوطني عند المؤلفين[١].

(١) أنظر للتقييمات الايجابية: كول (ناشرة)، *تعليم الماضي العنيف، التربية في حقل التاريخ والمصالحة*، ٢٠٠٧، ص ٢٧٧؛ شارل انغراو وتوماس ا. إيمرت (ناشران)، *في مواجهة الخلافات اليوغوسلافية، مبادرة باحثين علميين*، دار نشر جامعة بردو، ٢٠٠٩، ص ٤١٠؛ اليزابث كول، التربية في ظل التاريخ، *التربية وتعليم التاريخ وموقعها في العدل التاريخي*، غير منشور، مجلد محرر في أوترخت، مسودة فصل، ٣ أيار/مايو ٢٠١٠، ص ١٠؛ ألاستاذ كيث س. بارتن، جامعة سنسيناتي، تقرير تقييمي عن مشروع يوروكليو EUROCLIO «مقدونيا: رواية التاريخ من جديد»، ٢٠٠٧. http://www.euroclio.eu/site/index.php/macedonia-retelling-the-history-national-projects-221/materials-national-projects-231/cat_view/61-national/48-2006-2007-macedonia-retelling-history/419-reports-and-information؛ معهد جورج إيكرت للأبحاث الدولية حول الكتب المدرسية نظّم سنة ٢٠٠٩ حلقة دراسية دولية عن «البوسنة والهرسك ما بين ١٩٩٢-١٩٩٥» كان لأحد أعضاء فريق مشروع يوروكليو في يوغوسلافيا السابقة مساهمة كبيرة فيها. http://www.euroclio.eu/site/index.php/georg-eckert-institut-associated-members-920/658-sarajevo-qbosnia-and-herzegovina-between-1992-1995q؛ أنظر جريدة ترو الهولندية الالكترونية، ١٢ تموز/يوليو ٢٠١٠، حول عمل يوروكليو في يوغوسلافيا السابقة http://www.trouw.nl/opinie/commentaar/article3124781.ece/De__pijn_van_Srebrenica__kan__slechts_helen_door_erkenning_en_educatie___.html؛ أنظر *التربية في موضوع حقوق الانسان في اوروبا وآسيا الوسطى واميركا* =

ومع أن كتب التدريس والمراجع التاريخية هذه تُستعمل حتى اليوم من قبل كثيرين كمواد مساعدة مكملة، تبقى وظيفتها الأساسية التنمية في العمق للقدرات الاختصاصية المحترفة. لقد نجح المشتركون في كل مشاريع يوروكليو EUROCLIO في بيئات سياسية حساسة، وخاصة في المشاريع في البلدان المكونة سابقا ليوغوسلافيا، في تنمية إدراك صادق خاص بهم بموضوع تجديد تعليم التاريخ وبأفق أبعد من الأفق القومي. وإذ تقاوم هذه المشاريع استغلال تعليم التاريخ لأغراض سياسية ضيقة، فهي تشجع جوهر التعليم المدرسي، ألا وهو البحث المستمر وحب الاستطلاع، وتشكل خطوة نحو مجتمعات أقل عزلة. وقد دُرّب منذ سنة ١٩٩١ أكثر من ثلاثة عشر ألف مربّ ومربية في حقل التاريخ والتراث والتربية المدنية لكي يطوّروا مواد مبتكرة تحترم التنوع ويضعوها قيد التنفيذ في الصفوف.

تعمل المشاريع على أساس بناء الثقة بين المربين المشتركين والمنتمين الى مجتمعات منقسمة و/أو بلدان كانت متحاربة قبل برهة وجيزة. في روسيا وأوكرانيا واستونيا والبلدان المكونة ليوغوسلافيا سابقا ولاتفيا وجورجيا وأوروبا الوسطى أُنجز هذا بدرجة عالية من النجاح. فقد جاء اعتراف حكومي ودولي بالتحول الحاصل في تفكير المجموعة المستهدفة وفي مهاراتها التعليمية. إن المقاربة هذه تنشئ علاقات عمل مستدامة وعلاقات شخصية أيضاً عبر خطوط فصل ونزاع عن طريق جمع ممثلين عن الجسم التعليمي الذي «للضحايا» وكذلك «للمرتكبين» و«للمتفرجين»، «للمضطهِدين» و«للمضطهَدين»، وخلق محيط آمن لهم للعمل معا.

تتبيّن يوروكليو EUROCLIO في كل مشروع أشخاصا محوريين يُقدر أنهم صاروا يتملكون بقدر واف عملية تجديد تعليم التاريخ بطريقة مسؤولة ويتمتعون بالقدرة على تعزيز فوائد المشروع بمشاركة زملائهم بخبراتهم واختصاصهم. فيستطيعون، بناء على المواد التربوية التي طُوِرت ضمن المشروع، أن يدربوا آخرين عن طريق ورش العمل التفاعلية في بلدانهم وخارجها، في بيئات أخرى حيث تعالج يوروكليو EUROCLIO موضوع تاريخ مثير للخلاف وحساس. ومجموعة المربين الأساسية التي تتحدّد في كل

= *الشمالية: خلاصة جامعة للممارسات الصالحة*، ٢٠١٠، صادر عن عدة مكاتب في الامم المتحدة ومجلس اوروبا، والذي يشتمل على منشورات طُوِّرت ضمن مشروع «رواية التاريخ من جديد» الذي جرى ٢٠٠٦-٢٠٠٧ في مقدونيا ومشروع «دمج المجتمع في استونيا» الذي جرى في ٢٠٠٢-٢٠٠٤.

مشروع تنشئ أيضا حوارا مع السلطات التربوية، ومع وسائل الإعلام ومنظمات المجتمع المدني الأخرى لتأييد تغيير في المناهج كما تنشئ شراكات للمتابعة توسّع مدى أثر المشروع.

المنهجية

إن منهجية يوروكليو EUROCLIO تشجع مقاربة للتاريخ كواقع متعدد الطبقات ومركّب ومبني على التأويل. يشكل هذا، في البيئات حيث استُعمل التاريخ كوسيلة لغايات سياسية، طريقة جديدة جذريا للتعاطي مع المعرفة التاريخية. وتسعى المشاريع لمساعدة معلمي التاريخ في التعاطي مع التحديات التي تستتبعها هذه المقاربة الجديدة عن طريق تطوير مواد بديلة مساعدة للصف. فيكتشف الطلاب من خلال دراسة مصادر مختلفة تعدد الروايات، ويتعلمون التمييز بين الوقائع والآراء، وبين معلومات مبنية على أدلة ودعاية سياسية. توضع علامات استفهام على الفروض التقليدية لدرس التاريخ وتقدَّم نشاطات جذابة تتطلب استشفاف أحاسيس الآخر وتبادل الآراء والمعلومات والعمل ضمن الفريق. وهذه المقاربة تصحّ مبدئيا في حقول كثيرة أخرى على ارتباط بتربية الناشئة بما أنها تهدف بالدرجة الأولى إلى تنمية مهاراتهم ومواقفهم. فتعليم التاريخ بهذا المعنى يعمل كرافعة لعمل تربوي ابتكاري أوسع. انطلاقا من هذا المفهوم فان التعليم عن التاريخ والمواطنية والتراث موجَه إلى تنمية الكفاءات الديموقراطية بطريقة التعلّم النشط، ملتزما بالكفاءات الرئيسية والمشتركة الواردة ضمن الإطار التربوي للاتحاد الأوروبي[٢].

في بيئات تعاني من معضلات سياسية ترعى مشاريع يوروكليو تعليما للتاريخ يقوي التفكير النقدي والاستعداد للشك بالروايات المبسطة، كما ينمي مهارات تعاطف مع الآخرين والقدرة على الاختلاف في تأويل الماضي وتبعاته بالنسبة للحاضر دون اللجوء

(٢) أنظر الكفاءات الرئيسية كما حددتها وكالة الاتحاد الأوروبي للتعلم على مدى الحياة: التواصل باللغة الأم؛ التواصل باللغات الأجنبية؛ الكفاءة في الرياضيات وكفاءة أساس في العلوم والتكنولوجيا؛ الكفاءة الرقمية؛ تعلم التعلم؛ كفاءات اجتماعية ومدنية؛ القدرة على المبادرة ومباشرة المشاريع؛ الإطلاع والتعبير الثقافي. http://ec.europa.eu/dgs/ education_culture/ publ/pdf/ll-learning/keycomp_en.pdf.

إلى العنف. إن المواد التعليمية التي تنتجها فرق شاملة من المربين العاملين في حقل التاريخ توضح طريقة تطوير هذه المهارات والمواقف لدى الطلاب. فبدلا من استذكار تفاصيل روايات تاريخية محددة (والتي قد تكون مشحونة ايديولوجيا)، تطلب هذه المواد من الطلاب ان يستقصوا المواضيع ويكوّنوا استنتاجاتهم الخاصة، بناء على المصادر التاريخية المرتبطة مباشرة بهذه المواضيع، مما يزيد في تقوية مقاربة نقدية للتاريخ، بدلا من مقاربة أيديولوجية. والتركيز على الماضي القريب، وهو غالبا ما تهمله المناهج مع أن البحوث المختلفة بينت تفضيل الطلاب له، يعزز دور الطلاب في جمع الأدلة، وهذا ما يشجع التعلم النشط[٣].

بغية تنفيذ مقاربة مسؤولة ومبتكرة لتعليم التاريخ في البيئات السياسية الحساسة، يجري التشديد في إدارة المشاريع على أن يكون العمل شاملاً وتعاونياً إلى أقصى حد. والميادين العملانية الرئيسية للعمل التشاركي والتعاوني هي: العمل التعاوني داخل فريق ادارة المشروع بين مديري مشاريع يوروكليو المحترفين وبين المنسّقين المحليين المتطوعين من الرابطة الوطنية لمعلمي التاريخ؛ العمل على انشاء فرق كتابة مواد تعليمية جديدة يقودها المعلمون؛ التعاون خارج النطاق الوطني والتعلم من ند إلى ند مع مربين من بلدان أخرى. وأساليب التقييم المتّبعة في المشاريع تشتمل على: تقييم أنشطة المشروع من قبل المشاركين المحليين والآتين من الخارج بواسطة استمارة تقييمية دون ذكر أسماء مالئيها؛ مراجعة خارجية تقييمية من قبل خبير في تعليم التاريخ للمواد التربوية التي أُنتجت ضمن المشروع؛ اجراء مقابلات رسمية وغير رسمية مع أعضاء الفرق العاملة في المشروع وقادتها (تجري هذه افراديا وفي مجموعات صغيرة ذات تركيز محدد وفي المناقشات في المجموعة ككل). هذه التغذية الاسترجاعية المنوّعة تساعد على صقل مستمر للمنهجية ضمن مشروع محدد وكذلك من مشروع إلى مشروع.

ولكن التغيير في المنهجية لا يكفي. التعليم المسؤول والمبتكر للتاريخ يتطلب طرقا جديدة للتعاطي مع المعرفة التاريخية. هذا يعني توازنا أفضل بين البعد الجغرافي

---

(٣) ماريا غريفر، بن بيلزر وتيري هايدن، آراء الطلاب الثانويين عن التاريخ، في *مجلة الدراسات عن المناهج* ١-٢٣ (ص. ٢٣) http://www.informaworld.com. النتائج التي توصلوا إليها تتفق إلى حد بعيد مع مسح استقصائي أُجري سنة ١٩٩٧في ٢٧ بلدا أوروبا وموضوعه *الشباب والتاريخ*.

والمنظور السياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي، وتحولا إلى منظور عالمي أوسع. صار يوجد الآن تشديد على تاريخ الحياة اليومية وعلى العالم الإسلامي. ومفاهيم مثل الهجرة، النوع الاجتماعي، الشمول/التضمين المتبادل، حقوق الإنسان، التنوع والبيئة أصبحت تلعب دوراً في النقاشات حول المناهج في أوروبا، ولكن تطبيقها يتفاوت. وحتى ما كانت تخلو منه المناهج مثل الجرائم الوطنية ضد الإنسانية والاستعمار وتجارة الرق بدأت ببطء تدخل في المناهج الأوروبية.

إن يوروكليو EUROCLIO تعمل ناشطة لتشجيع هذه التحولات في الأساليب وفي محتوى تعليم التاريخ في المدارس، وتهدف إلى تطبيق نموذج جديد مبنيّ على تعليم التاريخ كرواية مفتوحة وليس كعلم وضعي/ايجابي مغلق. يوروكليو EUROCLIO لا تحبذ مقاربة تربوية تحاول تبييض روايات وطنية وعالمية عن الماضي وتغطية جوانبها المشينة للحصول على صورة متفائلة وغير خلافية. التاريخ الذي تدعو إليه تطور ليصبح متعدد الأبعاد وأكثر تركيباً وبالتالي أقل انحيازا إلى جهة واحدة وأقل تسييساً. أفضل مثل على هذا ورش العمل الناشطة التي حصلت حديثا ضمن مشروع يوروكليو EUROCLIO حول «*خبرات الهجرة في أوروبا والتصورات عنها*» (٢٠٠٩-٢٠١٠)[٤]. يعمل مشروع يوروكليو المسمى *هستوريانا* Historiana على إنتاج مواد واضحة جاهزة للاستعمال في الصف. وهذا المشروع هو أداة تربوية مقارنة تصل عبر الحدود على الانترنت، وأول موضوع ستعالجه عن الهجرة عنوانه *الناس الرُحّل*[٥]. المواد الأولى منتظرة في منتصف هذه السنة.

النقاش

هل من مقاربة مختلفة مطلوبة عند معالجة تاريخ البلدان التي توجد داخلها توترات سياسية وعرقية ودينية أو في البلدان والمناطق التي تعرضت حديثاً لصراعات عنيفة؟ لا أعتقد. كل تاريخ هو في الأساس متعدد الأفق وبالتالي موضوع خلاف، مع الإقرار بأن بعض المواضيع أكثر حساسية بكثير من غيرها. وعلمتنا خبرتنا في عدد من المشاريع أنه

(٤) أنظر تفاصيل عن هذا المشروع على http://www.euroclio.eu/site/index.php/overview-connecting-europe-306.

(٥) في الوقت الحاضر يوجد فقط موقع على الانترنت حول المشروع www.historiana.eu.

بالإمكان معالجة التاريخ الحساس بالمنهجية عينها. فقد نظمت يوروكليو EUROCLIO تدريباً في قبرص سنة ٢٠٠٨-٢٠٠٩، حيث قام مدرب قبرصي تركي بإدارة ورشة عمل سوية مع مدرب قبرصي يوناني بموضوع السنة ١٥٧١، وهي السنة التي احتلت فيها الدولة العثمانية الجزيرة. هذا الحدث يُعتبر في الذاكرة اليونانية الوطنية كارثة وطنية. في روسيا، وهو بلد تتمحور روايته الوطنية حول القومية الروسية، ابتدع فريق *فسيفساء الثقافات* في ٢٠٠٣-٢٠٠٥ طريقة لتعليم مفهوم التعدد الثقافي غير المعروف لديهم(٦). في يوغوسلافيا السابقة جرى ضم فصل، في الكتاب حول التاريخ المخفي، عن وجود معسكرات العمل القسري والأعمال الوحشية التي قام بها حكم تيتو في ١٩٤٤ و١٩٤٥، دون نقاشات مستفيضة بين أعضاء الفريق من البوسنة وكرواتيا وصربيا(٧). في مقدونيا، صَمّم مشروع يوروكليو EUROCLIO رواية التاريخ من جديد منهجا نموذجيا حول تاريخ الاستقلال الحديث، يتضمن فصلاً عن العلاقات العنيفة بين الفئات العرقية، التي كادت تؤدي إلى حرب أهلية سنة ٢٠٠١(٨). وقد راقبنا، بصفتنا أعضاء في الفريق، استعمال هذه المواد من قبل طلاب مختلطي الانتماء عمرهم ١٥/١٦ سنة يأتون من أربع مدارس منقسمة عرقياً. ألهمتهم هذه المراجع وجعلتهم يقومون بتفكير خلاّق ملفت عندما طُلب منهم تصميم برامج لأحزاب سياسية مختلفة تبني قاعدتها على مجموعات عرقية مختلفة. قدرتهم على تطوير برامج قاطعة وواضحة كانت مدهشة.

يبدو أن تعليم التاريخ بحسب النهج الذي طوره الكثيرون بعناية يسمح بمعالجة مواضيع حساسة جداً. ولكن من الضروري الانتباه بشكل خاص إلى بيئة العمل المعدة للمحترفين الذين يعملون في أوضاع حيث ما زالت الأحداث الماضية مشحونة جداً عاطفياً. كما سبق وذكر، فإن موضوع بناء الثقة في وضع كهذا هو بالتالي مفهوم أساسي، إذ فقط بوجود أوضاع مستقرة ومتجاوبة داخل المجموعة المحترفة يكون بالإمكان التعاطي بموضوع تاريخ حساس ومؤلم في كثير من الأحيان. لذلك من

---

(٦) *فسيفساء الثقافات*، كتاب تاريخ مدرسي (٣٢٠ صفحة) عن التعليم حول التعدد الثقافي في المجتمع الروسي، ٣٠٠٠ نسخة. موجود أيضا على قرص مدمج ودليل للمعلم، ٢٠٠٥.

(٧) وحدات تعليمية مناطقية مبتكرة لتطبيق مقاربات التعليم والتعلم النشط والتفكير النقدي: *أناس عاديون في بلد غير عادي: الحياة اليومية في البوسنة والهرسك وكرواتيا وصربيا ما بين الشرق والغرب ١٩٤٥-١٩٩٠*. موجودة بالبوسنية والكرواتية والانكليزية والصربية.

(٨) مواد تعليمية مبتكرة في مواضيع حول تاريخ مقدونيا بعد الاستقلال: *رواية التاريخ من جديد*، ملادنوفسكي، م.، شركة نيكو، سكوبيه. موجود بالألبانية والانكليزية والمقدونية.

الضروري الانتباه بشكل خاص أيضا قبل استعمال عبارات وروايات مشحونة عاطفياً. إننا نحبّذ التفكير باستخدام مفاهيم وصفات غير منحازة. في بعض الحالات يقودنا هذا إلى تصميم فروض للطلاب حول حساسية بعض المفاهيم والعبارات. في المشروع مع البوسنة وكرواتيا وصربيا أدى استعمال عبارة يوغوسلافيا في البدء إلى مظاهر عواطفية شديدة وتصادمية بين الصرب *«علينا استعمالها»* والكرواتيين *«علينا تجنب استعمالها»*. ولكن في النهاية استنتجوا أن وضع فرض يجعل الطلاب في المنطقة يفطنون ويفكرون بموضوع العواطف التي يثيرها استعمال تسمية يوغوسلافيا قد يقود إلى نتائج مهمة في عملية التعلم.

إن تبنّي نوعية جديدة عالية يساعد تعليم التاريخ في الابتعاد عن الروايات التقليدية التي كثيرا ما تكون تعظيماً وطنياً بنمط معين. في آب/ اغسطس ٢٠١٠ في مدينة لفيف في أوكرانيا كانت مجموعة من الزملاء تعمل بجهد لجعل التاريخ المدرسي الأوكراني المعتاد ينحو نحو الانفتاح، والإقرار خلال تعلّم وتعليم التاريخ بطابع التعددية الثقافية في المجتمع الأوكراني في ماضيه وفي حاضره[٩]. استعملوا الأبحاث الأكاديمية (الجديدة) ضمن مجموعة الوحدات التعليمية المشوّقة التي كانوا يطورونها، وادخلوا هذه الأبحاث بصفة انها آراء خبراء مختصين. ولكنهم لم يعالجوا نقدياً موضوع العروض التقليدية ذات النمط المكرر. فلاحظتُ تصورات عامة واردة وتقول مثلا: الأوكرانيون ضحايا؛ ، بولندا وروسيا وغيرها مسؤولة عن وجود عدد كبير من السكان اليهود في أوكرانيا؛ اليهود كانوا أغنياء ولم يتوجب عليهم دفع الضرائب؛ وأخيراً وليس آخراً، أن الأوكرانيين هم سكان البلد الاصليون بينما كل الشعوب الاخرى أتت عن طريق الهجرة. باعتماد معرفة تاريخية على هذا النمط ليس من الممكن انتظار تعليم للتاريخ يقدم مقاربات مبتكرة وشاملة. إن عمل *شبكة المؤرخين المعنيين* Network of Concerned Historians (NCH)، بما فيه شرعة الأخلاق للمؤرخين الصادرة عنهم، لم يلاقِ حتى الآن إقرارا عاما به كأساس للدراسات في التاريخ[١٠].

---

(٩) أنظر حول هذا المشروع بالأوكرانية http://www.novadoba.org.ua/history/?c=multicultural، وبالإنكليزية http://www.euroclio.eu/site/index.php/projects-mainmenu-125/current-projects-mainmenu-32/we-and-the-others.

(١٠) انطوون دي بايتس، التاريخ المسؤول، ٢٠٠٨. يقدم له يورغن كوكا، رئيس اللجنة الدولية لعلوم التاريخ، ٢٠٠٠-٢٠٠٥. أنظر شرعة الأخلاق على http://www.concernedhistorians.org/content_files/file/et/ 148.pdf.

نحاول طرح موضوع المقدرة على الاختلاف في تأويل الماضي عندما نعمل في الأماكن التي فيها توترات وصراعات سياسية وعرقية ودينية. في المشاريع التي أجريت في إستونيا ولاتفيا سنة ٢٠٠٢-٢٠٠٤ بموضوع *دمج المجتمع* بحثت الفرق المختلطة عرقيا عن سلسلة من المواضيع التي يحصل تأويلها بشكل مختلف كليا في المجتمعات الناطقة بالاستونية واللاتفية والروسية. المرجع الاستوني *التاريخ ليس فقط تاريخاً - الماضي ليس بعد تاريخاً*، تجرّأ على معالجة مسائل حساسة مثل «١٩٤٠ - احتلال أو اتحاد طوعي مع الاتحاد السوفياتي؟»، و «جمهورية استونيا السوفياتية، دولة مستقلة أو دمية على مستوى صف مدرسي؟»[١١]. المشروع اللاتفي أنتج كتابا عنوانه *نحن في لاتفيا. ستة مواضيع. أداة مساعدة منهجية لمعلمي التاريخ*. احد المواضيع في الكتاب كان عن «الهوية»، ويهدف إلى تطوير المفهوم عن عامل التعددية العرقية في تطور لاتفيا وبلدان البلطيق التاريخي والهويات المتغيرة للسكان عبر الزمن[١٢]. وقد عولج في هذا الفصل من الكتاب بواسطة المقاربات الفكرية النقدية موضوع الأنماط المكررة الشائعة في المجتمع اللاتفي المعاصر عن «جماعتنا» (اللاتفيين) الذين كانوا يحاربون ضد «الآخرين» (الذين يسمَّون غزاة، ابتداء من العصور الباكرة).

ما نحتاجه بكل تأكيد إذا أردنا معالجة ماض صعب، هو الوقت، كما دلتنا التجارب، خاصة في بلدان عانت من نزاع كما في يوغوسلافيا السابقة. فقط بعد اربع سنوات من العمل في المشروع وفي آخر اجتماع لفريق التحرير قرر الفريق المشترك البوسني والكرواتي والصربي أن موضوع تطور أزمة كوسوفو لا يمكن أن يُترك خارجا[١٣]. وقد شدد دائما الفريق هذا، الذي يتكون من عاملين في حقل تعليم التاريخ ومؤرخين، أن فهمهم للمقاربات المبتكرة لهذا الموضوع وتملكهم لها كان الشرط الضروري المطلوب ليستطيعوا في النتيجة معالجة هذا الموضوع الحساس جدا. وتجدر الملاحظة أنه حصل هذا في الفترة التي كان فيها اعلان استقلال كوسوفو ما زال تحت الدرس.

---

(١١) التاريخ ليس فقط تاريخاً - الماضي ليس بعد تاريخاً، مرجع للمعلم، منشور بالاستونية والروسية.

(١٢) نحن في لاتفيا، ستة مواضيع، أداة مساعدة منهجية لمعلمي التاريخ، منشور باللاتفية والروسية، ص. ٣٢.

(١٣) أناس عاديون في بلد غير عادي: الحياة اليومية في البوسنة والهرسك وكرواتيا وصربيا ما بين الشرق والغرب ١٩٤٥-١٩٩٠، ص. ٥٤.

والعمل في موضوع تاريخ خلافي وحساس يتطلب حتما أيضا شجاعة مدنية صادقة من قبل المشاركين، إذ إن المحترفين في أوضاع كهذه معرضون بسهولة لخطر المهاجمة من قبل زملائهم المحليين، والمؤرخين الجامعيين ومعلمي التاريخ على حد سواء، وكذلك من السياسيين ووسائل الاعلام. لقد كان رئيس رابطة معلمي التاريخ المقدونية شجاعا جدا عندما أخذ المبادرة لعرض نتائج المشروع المشترك بين الاعراق بموضوع *رواية التاريخ من جديد* في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٧ في المؤتمر الوطني للمؤرخين المقدونيين، وهو حصن للقومية المقدونية. ولكن بالرغم من الشكوك وخروج عدد من المشاركين، استطاع أن يقنع العديدين بسلامة النموذج المستخدم في المشروع لصياغة رواية مشتركة سليمة.

إن فرق المشروع تعمل بصمت (نسبي) عندما تكون في صدد تاريخ حساس، وذلك لمنع تعرض مجموعات المحترفين المختصين لضغوط سلبية. فقط عندما يشعر الفريق المحلي واثقاً من الإعلان عن عمله يباشر بتنمية الاتصالات مع المسؤولين المحليين في قطاع التربية والسياسيين والمؤرخين المعارضين ووسائل الإعلام. ويساعد هذا الأسلوب الصامت، بالمناسبة، أيضا بتفادي الاتهامات عن تدخل أجنبي.

أخيرا، إن التعاطي مع وضع حساس يتطلب أكثر مما في أي وضع آخر احترام القيم الإجرائية السبع مثل احترام المنطق والحقيقة كما يعرضها الدكتور روبرت ستراداينغ Dr. Robert Stradling في كتابه دليل عن القيم للحياة في الديموقراطية[١٤] Handbook on Values for Life in a Democracy. ننتظر من أعضاء فريق المشروع الذي نقوم به أن يكون عندهم موقف إيجابي وأن يطبقوا هذه القواعد. البعض قد يرى في هذا وعظا لا لزوم له، ولكن الكثيرين ليسوا إلا متفرجين قبل أن يبدؤوا بالعمل معا. وقد تعلمنا أن أولئك الذين يرفضون التعلم والتغيير منذ البدء ليسوا المجموعة التي نستهدفها.

ولكن هل هذه المقاربة كافية لتصنّف أيضا كمثل عن المصالحة عن طريق تعليم التاريخ؟ لقد طوّر عدد من الدارسين بصورة إفرادية حديثا مقاييس لما يعتبرونه عناصر قيّمة بالنسبة لعملية المصالحة. أود اتّباع إليزابث كول Elizabeth Cole في مقدمتها

(١٤) د. روبرت ستراداينغ، دليل عن القيم للحياة في الديموقراطية (ستراسبورغ، ٢٠٠٧). يعرض ويفسر سبعة مفاهيم: الكرامة، التبادلية، العدل، التسامح، الحرية، احترام المنطق، احترام الحقيقة.

لكتاب تعليم الماضي العنيف. تقتبس من هاين وسلدن Hein and Selden لتحاجج وتقول أنه بإمكان المحتوى والمنهجية أن تدفع إلى الأمام مصالحة طويلة الأمد عن طريق تعزيز التفكير النقدي، والاستعداد للتشكيك بالنماذج المبسطة، وتعزيز المهارات المؤسسة على التعاطف مع الآخرين، والقدرة على الاختلاف في تأويل الماضي وتبعاته بالنسبة للمسائل الاجتماعية القائمة في الزمن الحاضر دون اللجوء إلى العنف (Cole, 2007, p. 2). وهي تشجع مع عدد من الاشخاص الآخرين نمطا تربويا في موضوع التاريخ ينمي قدرة الطلاب على مقاربة الماضي بموضوعية الباحث كوسيلة للمصالحة بين ماضيين متعارضين (Cole, 2007, p. 22).

يكتب أيضا دايفد ماكدونالد David MacDonald عن دور تعليم التاريخ (Ingrao, & Emmert, 2009, pp. 391-398) في فصله في كتاب *في مواجهة الخلافات اليوغوسلافية Confronting the Yugoslav Controversies* وهو بعنوان *العيش معا أو كره بعضنا البعض Living Together or Hating Each Other*. يناقش أنه يجب التعرّض للروايات الوطنية السلبية المسيطرة كما يجب التشديد على خبرات العيش المشترك الأكثر إيجابية. في كل عملنا في يوروكليو نحاول بالفعل أن نوسّع أفق الرواية التقليدية. ففي الكتاب عن التاريخ اليوغوسلافي عرضت المجموعة أيضا مواضيع مثل الرياضة وثقافة أفلام السينما والسياحة.

يتابع دايفد ماكدونالد David MacDonald البحث عن عناصر أخرى تدعم فرص المصالحة ويشدد، مقتبسا من بيرو وميلين Biro and Milin، على أهمية العلاقات الودية بين المنتمين إلى مجموعات عرقية مختلفة. أعيد القول أن هذا بالتأكيد ما يحصل في مشاريع يوروكليو المختلفة التي ذكرتها. في إحدى الرحلات قطعنا الحدود بين البوسنة وصربيا في حافلة مع أعضاء الفريق الكرواتيين. فسألهم شرطي الحدود عما كانوا يفعلونه، فأجابوه إننا كنا نعمل مع زملاء من البوسنة وصربيا على كتاب تاريخ مدرسي مشترك. وسأل ما إذا كان بالإمكان مجرد تكلم البعض مع الآخر، فكان الجواب والكل يضحك، بالطبع، لسنا فقط زملاء بل أيضا أصدقاء!

تكتب «مبادرة بناء السلام» The Peace Building Initiative، مستشهدة في كثير من الأحيان بإليزابث كول Elizabeth Cole، «إن نقل/تسليم الذاكرة والتاريخ في فترة تلي فترة نزاع من الممكن أن تلعب دورا مؤثرا في تطوير هويات جديدة للمواطنية وامتلاك شعور بوجود تاريخ مشترك عنصر أساسي في تكوين الهويات وفي ما يسمى عموما عملية المصالحة».

يتفق الباحثون على الصعيد الوطني والدولي عموماً على أن هدفا أساسيا لتعليم التاريخ هو نقل أفكار حول المواطنية وكذلك حول الماضي في مثاليته وحول مستقبل الجماعة الموعود. فليس مفاجئا بالتالي أن برامج إصلاح التربية التاريخية تدور تقريبا دائما حول تغيير طريقة تقديم ماضي الجماعة السياسية نحو «تشجيع التسامح والشمولية والقدرة على التعاطي مع النزاعات بشكل غير عنفي والمقدرة على التفكير النقدي والشك بفرضيات قد يحصل التلاعب بها ثانية لتجيّر للتحريض على النزاع». وكثيرا ما يُرفق بهذا مفهوم «التربية على السلام [أو على بناء السلام]» والذي يسعى لدعم «نهج تربوي يسمح للطلاب بالتعبير عن الاختلافات الموجودة بين المجموعات أو داخلها والتعاطي مع هذه الاختلافات برحابة والقبول بها [. . .]. يستدعي هذا عملاً باتجاهين، فمن جهة من المطلوب تنمية علاقات إيجابية بين المجموعات وبناؤها، ومن جهة أخرى تهميش العلاقات السلبية بين المجموعات وتعطيل بنيتها». تعليم التاريخ يحتل موقعا محددا في عملية التصالح لكونه يطال أبعد من المستوى النخبوي ويصبح «جزءا من حياة الناس، جزءا من المؤسسات العاملة على المستوى المتوسط وعلى مستوى القاعدة السكانية أيضاً، كالمدارس، التي يرتبط عملها عن قرب أكثر بحياة المواطنين العاديين» (International Association, 2007-2008).

تعكس هذه الأفكار أوجهاً من عمل يوروكليو EUROCLIO عندما تعمل في الأماكن التي فيها توترات وصراعات سياسية وعرقية ودينية، مما يشير إلى أننا نلتزم بالكثير من الشروط التي يضعها الخبراء الأكاديميون. ولكن حتى المشروع الذي استمر خمس سنوات في البوسنة وكرواتيا وصربيا لم يستطع إلا البدء بمعالجة الخلافات الثانوية في المنطقة. الخلافات الكبيرة المتعلقة بالحرب العالمية الثانية وحروب عقد التسعينات في أواخر القرن العشرين بقيت خارج نطاق العمل. ومع أن الكثير من زملائنا في المنطقة يشعرون الآن أنهم مستعدون لمعالجة موضوع الحرب العالمية الثانية في تعليم التاريخ في المدارس، فإنهم ما زالوا مترددين أن يعالجوا مباشرة حروب التسعينات[١٥]. إنهم مدركون أنه، كما وصفت الموضوع اليزابث كول Elizabeth Cole

(١٥) تقدم يوروكليو EUROCLIO اقتراحات مشاريع لمعالجة هذه المواضيع الحساسة جدا إلى الاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا OSCE ومبادرة تحالف الحضارات للأمم المتحدة ووزارة الخارجية البلجيكية. للأسف، يحتاج المانحون إلى فترة طويلة جدا لأخذ قرار في ما إذا كانوا يريدون تمويل هذه المشاريع. الخطر يكمن في أن يضيع الزخم.

خلال محاضرتها في اوترخت في أيار/ مايو ٢٠١٠، سيكون تحديا كبيرا تلبية طلب الضحايا المحقة في أن يكون هناك إقرار في الكتب المدرسية بما أصابهم من آلام، وبنفس الوقت عدم وضع ثقل على كتف جيل جديد، عن طريق إعطاء وقود جديدة تطيل الكراهية والاستعداد للقتال (Cole, 2010, p. 2). نحن ما زلنا في بدء الطريق لايجاد مقاربة للاستعمال قي الصف صالحة للتنفيذ.

ولكن تحذّر مبادرة بناء السلام The Peace Building Initiative وكثيرون معها أنه «مع أن تعليم التاريخ بامكانه مبدئيا التشجيع على المصالحة، فان مرحلة معينة من المصالحة يجب أن تنجز أولا قبل أن يصبح بالإمكان إجراء تعديل في الكتب المدرسية، ويصبح بمقدور الجمهور تقبل هذه التعديلات التي تتحدى روايات عزيزة على قلب بعض قطاعات الشعب، ويصبح بإمكان المعلمين تحدي الروايات المطعون بها والأنماط المكررة ويخاطرون بإثارة جدال في الصف (International Association, 2007-2008). وللأسف فإن هذا العمل غير شعبي في الكثير من الأحيان إذ لا يعكس المواقف السياسية الرائجة والتي كثيرا ما تكون شعبوية. في روسيا اختفى الموقف الليبرالي الذي كان موجودا في التسعينات، وتُخاض معركة جديدة بين الحكومة والمؤرخين ومعلمي التاريخ لتأويل الماضي القريب بطريقة أكثر ايجابية[١٦]. في جورجيا ترعى الحكومة كتابة كتاب مدرسي جديد لاعلام الطلاب عن التأثير السلبي الروسي على التطورات في البلاد خلال المئتي سنة الأخيرة[١٧]. في نطاق بلدان يوغوسلافيا السابقة أيضا، فإن الحكومات الحالية في مقدونيا وصربيا والبوسنة بالتأكيد غير متحمسة لوضع كتب مدرسية في الاستعمال تأخذ مقاربة أكثر اتزانا. ويندرج هنا قرار وزارة التربية الإسرائيلية استبعاد أحداث مثل حرب لبنان الأولى واتفاقيات أوسلو عن الكتب المدرسية، في حين تشمل أحداثاً أقرب منها زمنيا مثل اتفاقية السلام مع الأردن و«الهجرة اليهودية إلى إسرائيل خلال الثلاثين سنة الأخيرة من القرن العشرين» (Kashti, 2010). ما زال هناك الكثير من العمل، وأخشى أنه لن ينتهي أبدا.

---

(١٦) أنظر المقالات عن إنشاء لجنة «لمواجهة المحاولات لإلحاق الضرر بالمصالح الروسية عن طريق تزوير التاريخ» من قبل الرئيس ميدفيديف في أيار/ مايو ٢٠٠٩ على صفحة التاريخ في الأخبار على موقع يوروكليو الالكتروني.

(١٧) أنظر الإعلان عن مبادرة من هذا النوع على موقع وزارة التربية الجورجية الإلكتروني في آذار/ مارس ٢٠١٠، http://www.mes.gov.ge/content.php?id=670&lang=eng.

خاتمة

نجحت يوروكليو EUROCLIO، بعد عشرين سنة تقريباً من تنفيذ المشاريع، في إقامة علاقات مستدامة مع منظمات أخرى ناشطة في حقل المصالحة وبناء السلام مثل منظمة الأمن والتعاون في أوروبا OSCE، مجلس أوروبا، اليونسكو، والإتحاد الأوروبي، الخ. هؤلاء اللاعبون الكبار يطلبون بشكل دائم من يوروكليو EUROCLIO الخبرة ويشركون الرابطة وأعضاءها في مبادراتهم الواسعة. ولكن السياسيين عالميا ومحليا ووسائل الاعلام والمانحين يهمهم في كثير من الأحيان النتائج الفورية والمشاريع المثيرة والتي عليها فورا معالجة المواضيع الأكثر حساسية وإثارة للخلاف. يستخدمون مفاهيم مثل المشاريع السريعة التنفيذ، والتي لا تدوم أكثر من ثلاث سنوات، وينظر إليها على أنها حلول سريعة للمشاكل القائمة، بما في ذلك تعليم التاريخ. للأسف، ليس سهلا اقناع هؤلاء السياسيين ووسائل الإعلام والمانحين أن مقاربة تسير خطوة خطوة تعود بنتائج مستدامة أكثر بكثير. يقع على عاتق كل أولئك الاختصاصيين المحترفين داخل يوروكليو EUROCLIO وخارجها الذين يريدون المتابعة بطريقة العمل الحالية، مهمة شديدة الأهمية، ألا وهي البحث عن طرق تنجح بإقناع السياسيين الدوليين والمحليين ووسائل الإعلام والمانحين أن الطريقة الجديدة لمقاربة موضوع تعليم التاريخ في المدارس بإمكانها بالفعل المساهمة في إقامة سلام واستقرار وديموقراطية مستدامة.

الحلول السريعة الفورية ليست ممكنة في حقل التربية. تغيير العادات والمعتقدات مهمة دقيقة وحساسة ومستهلِكة لوقت العاملين فيها. ولكن أعتقد أن يوروكليو EUROCLIO قدمت نموذجا ناجحا للعديد من العاملين في حقل تعليم التاريخ في أوروبا ليعالجوا مادة تاريخية مبتكرة وفي كثير من الأحيان تكون خلافية، وطرقا للتعلم والتعليم مبتكرة أيضا، ومتعاونة، وناشطة، وذات معنى. إذا أدرك المحترفون في حقل تعليم التاريخ أن عملهم له مفعول، فإنهم على استعداد فائق لتطوير تعليم للتاريخ يدعم عالماً مستداماً.

لائحة المراجع

About this project: Novadoba, (n.d.) retrieved from: http://www.novadoba.org.ua/history/ ?c=multicultural in Ukrainian and http://www.euroclio.eu/site/index.php/projects-mainmenu-125/current-projects-mainmenu-32/we-and-the-others in English.

Cole, E. (2010). Education in the shadow of history. *Education, history education and their place in historical justice*. Unpublished Utrecht Edited Volume Chapter, draft, 3 May 2010. p. 2.

Cole, E. (Ed). (2007). *Teaching the violent past, history education and reconciliation*, p. 21.

De Baets, A. (2008). *Responsible history*. (F.W. Kocka, J. President of the International Committee of Historical Sciences, 2000–2005. Please find the code of ethics http://www.concernedhistorians.org/content_files/file/et/148.pdf.

Grever, M., Pelzer, B. & Haydn, T. (2011). High school students' views on history. *Journal of Curriculum Studies, 43*(2), pp. 207-229. Their findings are largely consistent with the *Youth and History* survey from 1997, executed in 27 European countries.

History is not only Past, the Past is not yet History, Teacher resource book, published in Estonian and Russian.

Ingrao, C. & Emmert, T. A. (Ed.). (2009). *Confronting the Yugoslav controversies: A scholars' initiative*. pp. 391-398. Perdue University Press.

International Association for Humanitarian Policy and Conflict Research (aisbl) (2007-2008). Reconciliation: Reconciliation and peace building processes. Retrieved from: http://www.peacebuildinginitiative.org/index.cfm?pageId=1975

Kashti, Or. First Lebanon war, Oslo accords missing from Israeli textbooks. (2010). Retrieved from: http://www.haaretz.com/print-edition/news/first-lebanon-war-oslo-accords-missing-from-israeli-textbooks-1.298176

Mladenovski, M., Niko Company, Skopje. (2007). Thematic innovative teaching material on the history of Macedonia after the independence: *Macedonia: Retelling the history*. Available in Albanian, English and Macedonian.

Social transformation Programme Central and Eastern Europe (Matra) of the Netherlands Ministry of Foreign Affairs. *Ordinary People in an Extraordinary Country, Every Day Life in Bosnia and Herzegovina, Croatia and Serbia between East and West (1945-1990)*, p.54.

Stradling, R., Handbook on Values for Life in a Democracy" (Strasbourg, 2007). He gives and explains 7 concepts: dignity, reciprocity, fairness, tolerance, freedom, respect for reasoning and respect for truth.

We in Latvia, Six themes, Methodical Supplementary Aid for History Teachers, published in Latvian and Russian, p. 32.